روعة الإعجاز ودقة الإيجاز في الخطاب القرآني

أ.د علي الطاهر شرف الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

«قُل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»

(الاسراء ٨٨)

خلاصة :

القرآن رسالة الله الخاتمة لكل انسان في كل مكان وزمان. فهو كتاب محفوظ بعنايته تعالى من التحريف والتبديل. كما أنه خطاب حكيم يتفرد بخصائص ذاتية لذلك لزم أن يكون متصلاً عبر الأجيال. متطوراً مع كل الاحوال يتجدد عطاؤه. وتتعمق دلالات نصوصه. وتتناغم ايقاعات الفاظه. وتتجلى روعة بيانه في اسلوب نظيم. ونسق قويم. وقول حكيم. ونبأ عظيم. تتوسع مدارك المتدبرين في آياته كلما تبلورت رؤيتهم لما يجري في آفاق الكون وما يعتمل في دواخل الانفس. وما يستجد من تكاثر الاحياء وتغاير الأشياء فيهدي ذلك الى علم رفيع. يكشف عن إعجاز بديع. من التكامل والتواؤم والإتساق. بين آيات الله في القرآن وآياته في الآفاق.

في هذا البحث رؤية للكشف عن هذا الإعجاز من خلال المزاوجة بين ما تضمنه هذا الكتاب من هداية وأحكام. وما أودعه الخالق في الطبيعة من سنن وأحكام .

مقدمة :

أي القرآن المجيد لا تقف معانيها عند ادراك ما فُطر عليها هذا الكون المادي المحدود بل تمتد دلالاتها بلا حدود الى ما وراءه من مراتب الوجود. وتتكشف من خلال هذا الكتاب المسطور تجليات الغيب المستور على صفحة الكون المنظور وتنسق الرؤية لآيات الله الكونية مع الرؤية الكونية لآياته القرآنية. ويتساوق في الخطاب القرآني روعة اعجازه مع دقة ايجازه فهو كلام الخالق المشتمل على العلم بما أجراه من سنن الخلق. وما أودعه في الوجود من ناموس. ومن قوانين تحكم كل محسوس. لذلك فإنه كلما ثرت مدارك العقل في مدارج العلم بطبائع الاشياء ومسالك الأحياء اتسعت آفاق معرفة الانسان بدلالات كتاب الله. فيتكشف له وجه من وجوه الاعجاز الذي تتسم به هذه الرسالة الخاتمة بمحكم فرقانها وحكمة اتقانها وبديع بنيانها وبليغ تبيانها ومُعجز بيانها.

القرآن ختم رسالة الله للناس كافة. فهو محفوظ بالله لا يأتيه بطلان. خالد في كل حقب الزمان، بالغ كل جهة ومكان. مخاطباً كل انسان لا ينضب معينه ولا تنقضي عجائبه. فحفظه يعني خلوده وديمومته ما دام هذا الانسان محل خطابه. وهذا يقتضي تطور فهم العقل الانساني لمعانيه. وتوسع مراميه. وما ينكشف من اعجاز فيه. كما يستلزم ذلك من التطور تجدد هذا الفهم في مضمونه. وتعميق مدلوله. وتفرده وشموله. وهيمنته على كل الرسالات السابقة. واستيعابه لكل مستجدات لاحقة. وبتطور فهمنا لآيات القرآن الكريم تتكشف امامنا وجوه اعجازه. وهنا يجب أن نبين أن ما نعنيه هو الاعجاز المتمثل في خصائص هذا الكتاب وخطابه الذي يزاوج بين الحقائق الحسية والغيبية في تصور بارع يجعل من المحسوس صورة جزئية لوجود غيبي كلي كما يقرب المفاهيم الغيبية بصورة حسية تستجيب لها عقولنا لذلك يجدر بنا أن نتناول مدلول الاعجاز القرآني من حيث علاقته بعالم الغيب .

عالم الغيب :

إن ما يدركه الانسان أو يمكن أن يدركه في الطبيعة بحواسه هو ما نسميه عالم الشهادة الا أن في الطبيعة ما يستحيل إدراكه بالحواس أو بأي وسيلة مساعدة، إما بسبب وجوده في أطراف الكون القاصية أو بسبب حدوثه في الماضي أو المستقبل. علماً بأن ما ندركه الآن من حالة الكون بوساطة الضوء الصادر من النجوم البعيدة إنما يصف حالته في ماض سحيق. وهكذا فإن ما نشاهده من حولنا في الكون محدود بحدود الزمان والمكان. ويستحيل تجاوز هذه الحدود عن طريق حواسنا. الا أن ما وراء هذه الحدود يمكن تصوره عقلاً بل يمكن وصفه من خلال القانون الطبيعي بحسبه امتداداً لما نشاهده بحواسنا. هذا الامتداد العقلي للكون المشاهد غيب نسبي من حيث ارتباط وجوده بالظرف الزماني والمكاني. أما الغيب المعرف بالألف واللام أو الغيب المطلق، هو وجود لا يمكن وصفه أو تفسيره بأي قانون طبيعي. ولكن بالطبع فهو محكوم بناموس الوجود الذي يشمل الغيب كما الشهادة. ومن هذا نجد أن عالم الغيب يحيط بالكون الطبيعي المادي ويسمو عليه ليس من حيث المكان بل من حيث مرتبته في عوالم الوجود. إذ يصير عالم المادة هو ادنى هذه المراتب. وهو ما يسمى بالسماء الدنيا بكل ما تحتويه مما نشاهده أو ندركه ولكن يستمد من الوحي الذي فهمنا منه أن الله «الذي خلق سبع سموات طباقا» «1»، قد رتب بناء الوجود من هذه السماوات أو الطبقات السبع حيث يسمو بعضها على بعض في المرتبة، ولكنها تتحد في الخلق. والعلم بما يلينا من السماء الدنيا المتمثل في العلم الطبيعي محدود بمحدودية حواسنا وقاصر بقصور ادراكنا ولكنه متطور ابداً كلما اتسعت دائرة هذا الادراك. وكلما تعمقت معرفتنا بما يعتمل في الكون وفي الطبيعة وفي الحياة.

وحدة الخلق :

إن سمو عالم الغيب وتضمنه الكون الطبيعي ينسجم مع شمول الوحي وهيمنته على العلم الطبيعي ومن ثم يدل على وحدة العلم وحدة الخلق بين عالمي الغيب والشهادة وارتباط كل ذلك بأصل واحد مستمد من الذات المتفرد باحديتها المتميزة بصمديتها. وهنا يجب ألا يخلط بين ما نعنيه من وحدة الخلق في هذا السياق وما ذهب اليه بعض الغلاة من مقولة «وحدة الوجود» التي لا تتفق في مضمونها ومراميها مع ما يعالجه هذا البحث.

"1" الملك "3".

من هذا يمكن النظر الى العالم الطبيعي وما يحدث فيه من ظواهر بحسبه مظهراً لوجود غيبي ومن ثم يصير العلم الطبيعي مدخلاً للايمان بالغيب من حيث أن الاعتقاد بحقيقة ما يجري في عالم الشهادة وتبين حدوده يستوجب الايمان بالغيب الذي يمتد وراء هذه الحدود بلا حدود.

كما اسلفنا في ما ذكرناه من أوجه القصور في العلوم الطبيعية والتي كشفت عنها النظريات الحديثة، فإن الباحث المتعمق في دراسة سلوك المادة لابد وأن يجد نفسه عند اعتاب الغيب فالأجسام المادية ـ كما يمكن تصورها ـ ليس الا حالات اختزان للطاقة أو مظاهر لتكوينات متكاثفة وسط وجود ذي طبيعة غيبية على نحو مشابه لقطعة ثلج في بحر تجمدت من مياهه أو قطرة ماء تكاثفت عن بخاره. وهذه الطبيعة الغيبية يعضدها مبدأ عدم التيقن في الطبيعيات الكمية المؤسس على خاصية «التقطع» في حالة الجسيمات الدقيقة، الذي يمكن تصوره من خلال ازدواجية جسيمية ـ موجبة أو «مادية ـ غيبية» تجعل وجود هذه

الجسيمات احتمالياً لا قطعياً في المكان والزمان.
من هذا يمكن الكشف عن حقيقة مهمة. وهي أن العالم الطبيعي المنظور ليس الا تجليات لعالم غيبي مستور. أي أن أصل المادة ومنشأها وجود غيبي. ومن هذه التجليات والتي يمثل عالمنا صورة منها نشأ الكون والطبيعة وما يعتمل فيها من تفاعلات.

في القرآن أعظم تجليات الغيب :

تتفاوت تجليات الغيب من حيث الدرجة في المخلوقات. فهي في أدنى هذه الدرجات تتمثل في الجمادات التي نعني بها الاجسام القاصرة بذاتها عن الحركة ما لم يؤثر عليها مؤثر خارجي وتتجلى الطبيعة الغيبية بمستوى أكبر في الأحياء وما ينطوي في سلوكها من غرائز متدرجة من الحياة النباتية الى الحيوانية. وأبرز درجات هذا التجلي هو خلق الانسان بما تفرد به من خاصية إعمال العقل في إدراك قوانين الطبيعة وسنن الكون. وأرقى تجليات الغيب تكون لدي نماذج من البشر اصطفاهم خالق الوجود لتبليغ ما لا يستطيع العقل بلوغه. هم انبياء الله وحملة رسالاته الذين يمكن أن يطلعهم على غيبه «عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً. الا من ارتضى من رسول» «١» وعلى رأس هؤلاء أتى النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم. وفي ذروة هذه التجليات وأروعها اوحى الله اليه القرآن الحكيم كتاباً شاملاً ومهيمناً على كل المعارف. معبراً عن أعظم تجليات الغيب. ما فرط الله فيه من شيء. هادياً لمعرفته تعالى ولمعرفة سننه في خلقه. وبهذا يتسم هذا الكتاب المجيد بخطاب ذي خصائص تنم عن إيجازه في البرهان وإعجازه في البيان.

خصائص القرآن :

ليس كلام الله كأي كلام. فالقرآن ليس خطاباً ينتهي معناه عند دلالات ألفاظه في مجال معين او وقت معين .ولكنه رسالة الله إلي البشرية في كل مكان وعبر كل زمان .لذلك سميت الجملة المكونة لألفاظه آية يتنامي معناها ويتسع كلما ترقي العقل الانساني في مقدراته علي استيعاب دلالاتها وللسبب ذاته فإن المفسرين لم يقيدوا تفسيراتهم لآي القرآن بأسباب نزولها لأنهم وعوا حقيقة أن كلام الله اعمق من أن يقصر على معنى واحد.

كما أنهم كانوا على درجة عالية من التأدب مع هذا الكتاب العظيم. فكثيراً ما ورد في تفاسيرهم جملة : هذه الآية تعنى فيما تعني. وقولهم : الله اعلم. ودرجة الفهم والإحاطة بمعانى الآيات ودلالاتها تزيد زيادة العلم الذي يزيد مع التقوى «وأتقوا الله ويعلمكم الله. والله بكل شيء عليم» «١». كما أن التقوى تفتح البصيرة في التفريق بين ما يلتبس على الناس «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا» «٢».

ومع عمق دلالات القرآن فإنه في ما يفيد الذكر يناسب كل الناس ويخاطب كل مستويات العقل. إذ جعله الله ميسوراً في لفظه «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر» «٣». كما جعله بينا في مدلوله «إن هو الا ذكر وقرآن مبين»٤. بهذه الصفة في كتاب الله التي تجعله ميسور الفهم للذكر عميق المعنى للفكر يكون القرآن هو الرسالة الخاتمة لبني الانسان. ولم يؤمر رسول الله الا بتبليغها وتبينها «وما على الرسول الا البلاغ المبين» «٥». لذلك فإنه عليه السلام لم يعمد الى تفسير آيات القرآن حتى لا يقصر معناها في دلالة محدودة فلا يجرؤ احد بعده على مخالفة تفسيره فينغلق بهذا باب الاجتهاد والتفكر فيها. فلقد دعا النبي المؤمنين يوم حجة الوداع وقال : بلغوا عني ولو آية وقال في الموقف ذاته : فليبلغ الشاهد منكم الغائب. ورب مبلغ اوعى من سامع. أي أن من يبلغ آية قد يعي معناها اكثر من يحملها. وقد طلب من استمعوا الى مقالته ووعوها أن ينقلوها عنه كما سمعوها دون زيادة أو نقصان. وفي هذا اشارة الى أن أجيالا لاحقة من المؤمنين قد يكتشفون في القرآن ما لم يكتشفه من سبقهم كما أن فيه سر خلوده وإعجازه كلما تنزلت معانيه على الأحداث والظروف لكل زمان ومكان.

في ضوء هذه الصفة التي ينفرد بها كتاب الله وما أوردناه عاليه من فهم لآيات الله الكونية وحقائق الوجود وعلاقة الغيب بالشهادة وأصل المادة. يجب أن ندرك أن كلام الله هو أعظم وأروع.

تجليات غيبه وربوبيته للكون.

وعلى هذا يجدر بنا دراسة خصائص القرآن الكريم

سيما التي تعبر عن إعجازه في مجال العلوم الطبيعية والمعرفة الكونية، وذلك من حيث شموله هذه المعرفة وحفظه وثبوت حقائقه وثباتها في كل مكان وخلودها في كل زمان، ومن حيث أنه مجال للبحث والتفكر وطريق الهدى والاستقامة. وهنا يمكن - في إطار المعرفة الكونية - مناقشة خصائص هذا الكتاب العظيم من الجوانب الآتية :

أولاً : خاصية شموله المعرفة الكونية :

لقد أسلفنا القول بأن الكون منظور إنما يمثل حالة محدودة من وجود غيبي أوسع من أن ندرك طبيعته، وأن القوانين التي تصف السنن الكونية إنما تمثل حالة خاصة من ناموس الوجود. ولذلك فإن العلم الكوني لا يعدو أن يكون جزءاً من المعرفة الكلية. وهذا واضح من قصوره المرتبط بمفاهيم المكان والزمان والمادة، أو من ناحية اخرى، بتاريخ نشوء الانسان على وجه الارض ومدى ادراكه المعرفي. بهذا فالعلم الكوني أو الطبيعي لا يخرج عن ما يتوصل اليه العقل الانساني من حقائق عن الكون والطبيعة. والقرآن وهو يقرر «ما فرطنا في الكتاب من شيء» «١» يورد كثيراً من هذه الحقائق الكونية تصريحاً أو تلميحاً، وفي ما سوى ذلك يحرض العقل ويحثه على التدبر والتفكر والنظر في آيات الله. ويأتي الخطاب القرآني في ما يتعلق بآياته تعالى الكونية على ثلاثة وجوه

"أ" حقائق قابلة للاختيار :

وهذه نعني بها الاخبار عن حقيقة كونية يمكن اختبارها وإثباتها بالتجربة أو المراقبة كما في قوله تعالى : «والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون» «٢». فاتساع السماء الكوني حقيقة توصل لها علماء الطبيعيات والكونيات واثبتت حديثاً بالقياس الفلكي. وهي حقيقة لم يكن المفسرون الاوائل في وضع يمكنهم من إدراكها. وهناك من الحقائق ما يمكن الاستيقان منه بالتجربة كما حدث حتى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن الاستشفاء من استطلاق البطن بعسل النحل التي : «يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» «٣». وهؤلاء المتفكرون هم الباحثون في علوم الأحياء والكيمياء والصيدلة والطب، وفي سلوك النحل، وفي التركيب الكيميائي للعسل، وفي كيفية الإستفادة منه في الاستدواء. ولقد رد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة على من استعجل شفاء أخيه فتشكك في فائدة العسل بقوله : صدق الله وكذبت بطن اخيك اذهب فاسقه عسلاً.

"ب" حقائق غير قابلة للاختبار :

نقصد بذلك الاخبار عن حقيقة كونية مستنبطة من قانون طبيعي ولكن يستحيل اختبار صحتها بطريق التجربة أو القياسات العلمية فيما يؤمن به علماء الطبيعة - مثلاً - إزاء بداية خلق الكون. فهؤلاء العلماء يصفون كيفية حدوث هذه البداية في الماضي السحيق قبل ما قد يصل الى نحو عشرين بليون عاماً كما يتحدثون عن نهاية الكون في المستقبل البعيد ويسود الاعتقاد لدي علماء الكونيات أن المادة الكونية - بما في ذلك الارض - كانت رتقاً مندمجاً فانفتقت في انفجار هائل لم يستغرق من الزمن أكثر من برهة متناهية في الصغر، حيث انطلقت طاقة عظيمة جعلت درجة الحرارة تفوق «١٠» بليون درجة، تناقص مقدارها عبر الزمان مع اتساع مطرد في البناء الكوني حتى بلغت درجة من البرودة اتاحت للجسيمات الأولية أن تتآلف مكونة الذرات.ثم من تزايد البرودة والاتساع تشكلت اجزاء الكون المنظور من مجرات ونجوم بالاضافة للمنظومة الشمسية بما فيها الأرض وما على الارض من ماء وحياة منشؤها هذا الماء. ثم أن هذا الكون سيواصل اتساعه الى أن يؤول الى فناء حراري محتوم لم يحدث بعد - والحمد لله على ذلك - مما يؤكد بداية الخلق وعدم ازلية الكون، اذ لو كان أزلياً - كما يدعى الماديون - لكان هذا الفناء الحراري قد حدث في الماضي. ويعتقد أنه عندما يحدث هذا الفناء الحراري بعدما يستنفذ الكون كل طاقته في عملية الاتساع ويصير خمود شامل يعقبه إنكماش وإنطواء الى الداخل في أجزاء الكون ليعود كما بدأ. هذا النموذج الذي يؤمن بصحته علماء الطبيعة يتحدث عن بداية ونهاية الكون، وكلاهما غيب لا تحيط عقولنا بكنهه. ومن المفارقة أن الكثير من الملاحدة الذين كفروا بالخلق يؤمنون بهذا النموذج الكوني الذي يدل على حقيقة الخلق. فها هو القرآن

يخاطبهم : «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون» «١». وفي هذه الآية اعجاز بين من أن الذين كفروا ـ وليس الذين آمنوا ـ هم من رأوا هذه الحقيقة إبتداءاً كما يستقررهم بقوله تعالى : «أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده» «٢». حيث أكد القرآن نهاية عمر الكون بقوله تعالى : «ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى» «١» كما بين القرآن كيف ينتهى هذا الكون : «يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين» «٢» كذلك يؤكد القرآن أيلولة كل شيء الى الهلاك : «لا إله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون» «٣»ومثل ذلك قوله تعالى : «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» «٤». وهذه الآيات تتحدى الذين كفروا وتجعلهم في ورطة إن لم يؤمنوا بالخالق.

"ج" حقائق قابلة للاستنباط :

ونعنى بهذه ما تتضمنه الآيات من إثارة لقضايا تتعلق بحقائق في الكون كما تتعلق بالغيب وتدعو الى التدبر والنظر والتفكر في ملكوت الله واستنباط ما يفضي اليه ذلك من علم عن الطبيعة والحياة. والقرآن يذخر بالخطاب التوجيهي مثل قوله تعالى : «أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض» «٥». أو قوله تعالى : «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» «٦».وكذلك قوله تعالى : «ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا» «٧».

والسؤال عن خلق السموات، وهو أمر غيبي، مقرونا بوصف لطبيعة الشمس والقمر، مثار لقضية تجمع بين العالم المستور والعالم المنظور. والخطاب القرآني كثيراً ما مزج بين الاخبار عن الغيب والاخبار عن الطبيعة والفطرة والحياة بحسب أنها علوم تتكامل للكشف عن حقائق الوجود. ولهذا فكتاب الله هو المصدر الجامع للمعرفة في كل مناحيها، وتبيان لكل شيء فيها. حيث يقول الحق : «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» «٨».

إن وظيفة الرسول عليه السلام أن يبلغ الرسالة ويبين للناس ما نُزل اليهم فيما يتصل بعلاقتهم بالخالق وبالمخلوقات من حولهم حسب قوله تعالى : «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك» «٩». أو قوله تعالى : «وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما انزل اليهم» «١٠». ولكن

ومع ذلك فإن القرآن كان يصرف الرسول عن الاجابة على الاسئلة التي يقصد بها شرح ظاهرة طبيعية كسؤالهم في علم الاحياء : «ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض» «١». فلم يجبهم الرسول صلى الله عليه وسلم الا في ما يفيدهم في أمر دينهم اما ما يحدث للبويضات داخل الرحم فمتروك للعقل البشري لإكتشافه. ومثل ذلك سؤالهم في علم الفلك : «يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج» «٢». فكانت الاجابة في ما يهم السائلين في حياتهم وعبادتهم أما كيف يتحول الهلال الى بدر ثم يصير محاقاً وعلاقة ذلك بحركتي الارض والقمر فما بعث الرسول لبيان ذلك والاجابة على مثل هذه الاسئلة متروكة ليتوصل اليها الانسان كلما ترقى في إعمال عقله متدبراً آيات الله في خلقه ومتفكراً في ملكوته . فيكتشف القوانين التي تحكم وتصف ما ينجم في الكون من ظواهر.

ما اوردنا يمكن الخلوص الى أن القرآن، وهو الكتاب الجامع لعلوم الوجود، يشمل علوم الكون بحسبه جزءاً من هذا الوجود. وتأتي الحقائق الكونية في سياق النصوص القرآنية إما بوجه صريح يدل عليها، أو بتوجيه للعقل ليكشف عنها. وفي الحالتين فإن مقدار ما نستمده من حقائق كونية من القرآن يزيد كلما تدبرنا آياته وكلما امعنا النظر في آيات الكون.

ثانياً : خاصية حفظه وديمومته :

حقيقة أن القرآن شامل لكل ضروب المعرفة ومهيمن عليها وأنه مصدر للعلم بحقاق الكون والوجود ما علم منه وما لم يعلم، يعني أنه خالد ومتجدد العطاء لا ينضب معينه مع الزمن. وتجدد العطاء يفيد خطاب الله للانسان المتصل عبر الزمان. فهو

محفوظ في كلمات الله لا يعتريه التبديل إذ «لا مبدل لكلماته «٣» تعالى. ومحفوظ من التحريف والتزييف : «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» «٤». ولقد أكد الله هذا الحفظ بقوله تعالى : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» «٥» ومع تطور حال المخلوقات عبر الزمان وكلام الله عن الحقائق الكونية ثابت لا يتبدل مثلما لا يتبدل خلقه للكون حيث : «لا تبديل لخلق الله» «٦». أو ما يجري فيه من سنة : «ولن تجد لسنة الله تبديلا» «٧».

الرسالة الخاتمة :

هذه الخاصية في القرآن التي تمثل خلوده وحفظه من التبديل مع شموله وتجدد عطائه للمعرفة في كل مكان وزمان تجعله رسالة الله الخاتمة للانسان. وفي هذه الخاصية يكمن سر إعجازه. وإعجاز القرآن تتعدد جوانبه. ومن هذه الجوانب سحره البياني الذي خاطب به الجيل الأول في صدر الاسلام. ونحن هنا لا نتطرق لكل جوانب الإعجاز القرآني وسنقصر تناولنا. أساساً ـ كما أشرنا آنفاً ـ على الإعجازات الكونية منها.

الآيات المعجزات في كتاب الله يتجلى انسجامها وتناغمها مع آيات الله في آفاق الكون وفي خلق الأنفس كلما ترقى العقل البشري في فهم قوانين الطبيعة وتعمق في فهم دلالات النص القرآني والانفعال بايقاعاته. ولا يزال القرآن يخاطب العقلاء ممن التبس عليهم الأمر فلم يتبينوا الحق : «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق. أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد» «١». ويسألهم مستقرراً : «أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» «٢». أو يلفت نظر الانسان الى خلقه داعياً : «فلينظر الانسان مم خُلق» «٣». والعقل هو نعمة الله التي تتيح للانسان استنباط قوانين الطبيعة وتفتح بصيرته لفهم آيات الله المنزلات. وإن التعمق في فهم هذه القوانين والكشف عن سنن الله في ما ينجم من ظواهر طبيعية يفضي الى اكتشاف ابعاد جديدة في معاني آيات القرآن. وبتطور مقدرات العقل البشري تتسع دائرة استيعابه لمعاني هذه الآيات. فربما فهم المفسرون الأولون آية قرآنية على نحو يتناسب آنئذ مع علمهم بخواص الاشياء وظواهر الطبيعة. لكن الآية ذاتها يمكن اليوم أن يتولد منها معنى أعمق. وقد يفهمها الجيل الذي يلينا بصورة أكثر عمقاً. وهذا الفيض المتجدد والمستمر من المعاني هو ما قد تعنيه الآية : «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا» «٤». وهو ما نعنيه بالإعجاز القرآني والمنهل الرباني الذي لا ينتقص بالأخذ منه ولا يكتفي منه آخذ. وهو ما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عبر عنه في وصف كتاب الله بأنه : لا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه. لهذا تحدى الله تعالى المرتابين في كلامه : «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله» «٥». وبالطبع

هم عاجزون حتى لو عاضدهم الجن في ذلك كما بين تعالى لرسوله : «قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» «١».

حقائق الكون في القرآن وحقائق القرآن في الكون :

إعجاز القرآن ـ كما اسلفنا ـ يتجلى في اتساعه لمخاطبة العقل البشري المتصلة على مر العصور في الكشف والتدليل على الحقائق. ويجب الاعتقاد بأن هذا العقل قاصر بطبيعته عن ادراك الحقيقة الكونية النهائية مما يجعله قابلاً للتطور مثلما أنه قاصر عن الأحاطة بكل دلالات آية من القرآن الذي تتسع ابعاد معانيه مع الزمن كما يجب الاعتقاد بأن الحقائق الكونية. قطعية الصحة. لابد وأن تكون متوافقة مع ما يفضي اليه الفهم السوي لنصوص القرآن المتعلقة بهذه الحقائق. وإنطلاقاً من هذا فإننا يمكن أن نقوّم نتائج النظريات الكونية بمعيار فهم صحي لآي القرآن. كما يمكن تقويم فهمنا الظني لآية قرآنية بما ثبتت صحته من قوانين كونية. أي أنه يمكن اكتشاف حقيقة كونية من خلال فهم متبصر لنصوص قرآنية. كما يمكن إدراك وتطوير معنى أشمل لآية قرآنية من خلال فهم لحقيقة كونية قطعية. وبهذه المزاوجة بين حقائق الكون في القرآن

وحقائق القرآن في الكون تتفتح بصيرة المؤمن في ارتياد آفاق من المعرفة الكونية واستكشاف صور من الإعجاز عنها. وإن ابلغ معاني هذا الاعجاز هو ما يكون متعلقاً بالعلوم الطبيعية التي تُختبر فيها صحة الحقائق بالمراقبة والتجربة وتنضبط بالقياس.

والنص القرآني قابل لمخاطبة كل مستويات العقل عند الفرد خلال تطوره الحياتي كما هو قابل لمخاطبة العقل البشري بوجه عام من خلال ترقية عبر القرون والاجيال. ويمكن أن نسوق بعض الأمثلة لصور الاعجاز القرآني التي تكشفت عنها معان عميقة بتطور العقل في مجال العلوم الطبيعية. من هذه أن المرء ربما يحتمي بفهم سطحي أو مباشر ـ مثلاً ـ عند قراءة قوله تعالى: «بلى قادرين على أن نسوي بنانه» «٢». ولكنه اذا تدبر روعة الخلق في الخلايا العصبية المتعلقة بحاسة اللمس وما في هذا البنان من دقة في ما تطبعه الانامل من بصمات يتباين رسمها عند أي شخصين حتى بين التوائم في الغالب الأعم، لعرفنا المغزى في تخصيص البنان للتدليل على قدرة الله، ولادركنا كم هو عظيم اعجاز الله في خلقه وفي قرآنه. ومثال ذلك اذا قرأنا قوله تعالى «الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون» «٣». لكفانا ما يُستقى من معنى مباشر لهذه الآية. إلا أنه خلافاً لما يمكن أن يتبادر للذهن من أن الشجر اليابس هو الذي يُجعل وقوداً، فإن نعته بالخضرة، والذي يبدو لفظاً زائداً من أول وهلة، يثير تساؤلاً عظيماً، ما كان لنا أن نجيب عليه الا عن طريق معرفتنا المكتسبة من علوم الطبيعيات والأحياء والكيمياء وعلم طبقات الارض. فهذه العلوم تفيد بأن زيت النفط أو الغاز أو الفحم الحجري الذي يستمد منه في حياتنا المعاصرة وقوداً لتوليد الطاقة إنما ينتج من المادة الخضراء في اوراق الشجر التي طُمرت تحت ضغط هائل في جوف الارض منذ أمد بعيد. ومن هذا يمكن أن نكتشف بعداً اعمق ومعنى أشمل لما تنطوي عليه الآية دون أن يكون في هذا الفهم الحديث تناقض مع ما فُهم في الماضي أو ما قد يفهم من ظاهر منطوقها. وقد لا يستوعب العقل ما ينطوي عليه لفظ قرآني ككلمة برزخ في قوله تعالى: «مرج البحرين يلتقيان. بينهما برزخ لا يبغيان» «١». وربما تفهم هذه الكلمة بمعنى حاجز مقارنة بالنص القرآني: «وجعل بين البحرين حاجزاً» «٢». ذلك أن طبيعة الماء في البحرين متباينة كما تنص الآية: «وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما برزخاً وحجرا محجورا» «٣». وهذا التباين هو الذي يعزى اليه عدم اختلاط الماء المتحرك في البحرين فينشأ عنه هذا الحاجز البرزخي الذي يمكن تفسيره الآن في ضوء النظرية الجزيئية التي تصف سلوك التيارات السائلة. وهكذا فإن هذا المفهوم الجزيئي لكلمة برزخ كان مكتنزاً فيها حتى كشفت عن دلالته الطبيعيات الجزيئية.

واكتناز اللفظ الواحد لمعان واسعة من خصائص التعبير القرآني والتي ربما لا تُكتشف من أول وهلة. ففي قوله تعالى: «والسماء بنيناها بأييد وإنا لموسعون» «٤». مجال لتدبر في آيات الله من اتساع كوني اسلفنا الحديث عنه ومن أييد تحكم بناءه فالأييد هي محصلة القوى التي تتضافر في حفظ توازن الكون وتماسك بنيانه. نعرف منها القوى التثاقلية والكهرمغنطيسية والنووية بتفاعلها الشديد والضعيف. وربما هناك قوى أخرى لما يكتشفها العلم الحديث.

فالقوه التثاقلية هي التي تجعل الاجرام السماوية متماسكة البناء كما يجعلها متوازنة في ما بينها. وهي التي تتجذب بفعلها الاجسام فتستقر على الارض كما جاء في قوله تعالى: «أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها انهاراً وجعل لها رواسي» «٥». وهذه الرواسي هي التي تحفظ توازن الارض عند دورانها حول نفسها والتي ذكرت في آية أخرى: «وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم» «٦». والرواسي الشامخات هي التي تؤثر في حالة الطقس فينعقد ركام السحب عند قممها.

وتتكاثف الثلوج عليها وتذوب وتستحيل السحب مطرا تجري من هذه الانهار بماء فرات ينحدر من سفوحها بفعل جذب الارض التي تكفت اليها كل حي وجماد كما قال تعالى في بيان ذلك مذكراً الانسان: «الم نجعل الأرض كفاتا. احياءً وأمواتا وجعلنا فيها رواسي شامخات واسقيناكم ماءً

فراتا» «١». واذا عرفنا أن القوة التثاقلية الجذبية هي التي تحكم نظام الكون الشاسع وهي التي تجعل الكواكب والنجوم وكل الاجسام المنظورة متماسكة متزنة. فإن القوة الكهربية والمغنطيسية هي التي تجعل الذرات المكونة للمادة كيانا مستقراً بفعل تجاذب نواة الذرة مع ما حولها من الكترونات مثلما تستقر الكواكب بافلاكها المدارية بفعل تجاذبها مع الشمس ومع بعضها البعض في المنظومة الشمسية.

واذا غصنا داخل البناء الذري للمادة سنجد الجسيمات الدقيقة التي تتركب منها نواة الذرة مترابطة في ما بينها بقوة هائلة هي القوة النووية.

وهكذا نجد أن البناء الكوني سواء في عالم الاجسام الجهاري أو الجسيمات الجهرية محكوم بمحصلة هذه القوى التي فتق الله بها الكون بعد أن كان رتقاص، كما اسلفنا شرحه. وهي التي يُعزى لها اتساعه الذي يؤكده القرآن بـ «إنا» ولا التوكيد في «إنا لموسعون» كما تؤكده المراقبة الفلكية.

إن النظرية التي يعتقد علماء الكونيات في صحتها عن البناء الكوني لا تخرج عن معاني آيات الانفتاق والاتساع المذكورتين آنفاً وبتعميق فهمنا لهاتين الآيتين يمكن تطوير هذه النظرية وفي هذا مثال لقابلية القرآن للكشف عن حقائق المعرفة الكونية.

واذا استقرأنا ما توصل اليه العلم الطبيعي في ضوء آية الانفتاق لأفادنا أن الكون بما فيه كوكبنا الارضي الذي تقوم عليه الحياة، والسماء المحيطة به، بل واستصحاباً لمدلول هذه الآية ليشمل بقية السموات التي تكمل مراتب الوجود، كانت جميعها في حالة التحام ففتقها الله بانفجار هائل الشدة في زمن فائق في الصغر يُقدر بجزء من مليون من الثانية تدل عليه «فا» التعقيب في قوله تعالى: «ففتقناهما».

وتستطرد النظرية الكونية في وصف اتساع الكون وتناقص حرارته الذي اتاح للجسيمات أن تتآلف مكونة الذرات ثم تآلفت الذرات لتكوين الأجرام السماوية والكواكب بما فيها الارض. وتفيد هذه النظرية أنه في مرحلة من عملية تطور خلق الكون سمحت الظروف الطبيعية باتحاد ذرات الاكسجين مع ذرات الهيدروجين لتكوين الماء الذي اتاح نشوء الحياة على وجه الأرض. وهذا ما أخبرت به آية الانفتاق اذ اكتمل نصها بقوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي» «١». وذلك للارتباط المنطقي بين الانفتاق ونشوء الماء والحياة من خلال تسلسل عمليات الخلق.

روعة التعبير ودقة التقدير:

والماء هو المركب الأساس في الكائنات الحية: «والله خلق كل دابة من ماء» «٢». ولقد تكرر ذكر الماء في كتاب الله «٣٦» مرة اغلبها في معان تذكر بهذه النعمة الشاملة التي جعلها الله متاحة في الطبيعة بحيث تغطي المياه «٧١٪» من سطح الكرة الارضية. فهو موجود في الطبيعة في ثلاث حالات، صلبة وسائلة وغازية. لذلك فهو أحسن واق من انتشار الحرائق والجع عامل لإطفائها مع أن جزيئاته مركبة من عنصري الهيدروجين شديد الاشتعال والاكسجين الذي يساعد عليه. وللماء استخدامات ووظائف كثيرة في الحياة. ولكي يؤدي الماء وظيفته الحيوية أودع الله فيه جملة من الخصائص الرائعة. فهو موجود على نطاق واسع في حالة السيولة كما يتبخر ليشيع في الجو قدراً من الرطوبة الضرورية للحياة البيئية ويستحيل بخاراً عند درجة حرارة الغليان كما أنه يتحول الى ثلج وبرد وجليد عندما تنخفض درجة حرارته الى الصفر. وعند هذه الدرجة تقل كثافة الماء المتجمد ثلجاً فيطفو على سطح السوائل. وبفضل هذه الخاصية الرائعة التي يتفرد بها الماء دون غيره من السوائل تجد الاحياء المائية مأمناً في باطن المحيطات القطبية. حيث يكون الماء الذي تحجبه عن الهواء البارد طبقة ثلجية، دافئاً نسبياً ذلك لو كانت كثافة الماء تزيد بالتجمد كما هو الحال في غيره من السوائل لقضى ذلك على الحياة في جوف البحار الشمالية والجنوبية. ولتجمدت كل مياهها بل ولتسببت في كارثة من الطوفان والفيضانات على وجه الارض.

وهذا الابداع في خلق الله الذي عبرت عنه آية: «إنا كل شيء خلقناه بقدر» «٣» ليكشف عن دقة في التقدير: «فتبارك الله أحسن الخالقين» «٤».

وتوقف الحياة على الماء يبدو أمراً بديهياً الا انه عندما يأتي ذلك في سياق آية الخلق مشيراً الى مرحلة من مراحل الانفتاق الكوني يكون اكثر عمقاً في مخاطبة الذين كفروا وأكثر تحدياً لعقولهم ومثل هذه الاسئلة التي تتحدى عقول الغافلين أو الضالين. تتكرر في القرآن. تسألهم عن خلق السموات والارض لتقرر حقيقة يمكن أن يتوصل اليها العقل. وقد ظل هذا التحدي قائماً من عهد نوح عليه السلام عندما خاطب قومه: «الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا. وجعل القمر

فيهن نورا وجعل الشمس سراجا» «١». والسموات السبع ـ كما أسلفنا ـ هي مراتب الوجود أدناها كوننا المادي المنظور الذي تمثله السماء الدنيا بما تحتويه من بروج ومن شمس وقمر: «تبارك الذي جعل السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً» «٢» والشمس هي السراج الوهاج الذي يشع منه الضياء وتنبعث منه الطاقة التي تعتمد عليها الحياة على وجه الارض. أما الضوء المنعكس من على سطح القمر هو النور. وحقيقة الفرق بين طبيعة الشمس والقمر لم تكن معروفة قديماً بالوضوح العلمي الذي اشارت اليه الآية والتي لم تُفهم الابعد تقدم العلم الطبيعي في عصور متأخرة.

ولقد ناقش العلم الطبيعي قضايا كونية تولدت عنها جملة من الاسئلة كانت اجابة القرآن ـ كما اسلفنا إزاء تمدد الكون ـ موجزة وبليغة وحاسمة. ومثل هذه القضايا ما يتعلق بخلق الأرض وكيف تكونت عليها الجبال الرواسي. وكيف تتوغل جذور هذه الرواسي عبر القشرة الارضية كما تتوغل الاوتاد. وكيف يؤدي وزنها الى التحكم في استقرارها وفي حركتها من أن تميد وتضطرب. وما توصل اليه العلم الحديث بشأن هذه القضايا كان القرآن قد أوجزه في آيات بينات في قوله تعالى: «الم نجعل الأرض مهادا. والجبال اوتادا» «٣». كذلك في قوله الحكيم: «خلق السموات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي أن تميد بكم» «٤». لقد ظل الانسان ردحاً من الزمان يجهل حدود الارض ولم يتأكد من كرويتها الا بعد ما طاف حولها ولم يكتشف مفسرو القرآن الاوائل سر الاعجاز القرآني في السؤال المتضمن لعبارة: «والى الارض كيف سطحت» «٥». واكتفوا بما ظهر لهم من معنى قوله تعالى: «والارض مددناها» «٦» أو قوله تعالى: «والله جعل لكم الارض بساطا» «٧». اكتفوا بما يبدو من معنى مباشر لهذه الآيات وبما الفوه من انبساط في سطح الارض ظاهر على مد البصر. إن المتبصر في هذه الآيات يرى أن سطح الارض المنبسط في كل موضع يجب أن يكون ممتداً الى ما لا نهاية. والسطح الوحيد الذي يتميز بهذه الصفة الهندسية هو السطح الكروي. وهو الذي يتيح تكور الليل على النهار والنهار على الليل على نحو ما نشهده في الطبيعة بتعاقب الليل والنهار ووفق ما تقول به الآية: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» «٨». ويمكن كذلك استنباط ما يشير الى كروية الارض من قوله تعالى: «حتى اذا

أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها امرنا ليلا أو نهارا فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالامس...» «١». وأمر الله يأتي للناس جميعا في وقت واحد كلمح بالبصر كما في قوله تعالى: «وما امرنا الا واحدة كلمح البصر» «٢». إذن الليل والنهار المذكورين في الآية يعبران عن وجهي الكرة الارضية. وهنا يجدر أن نلحظ أن هذه النتيجة العلمية المستوحاة من هذا الفهم المتقدم لا يناقض ما ذهب اليه المفسرون الأوائل في فهم آية: «والى الارض كيف سطحت» بل تعمق معناها وتربط دلالاتها بسنة الله في الطبيعة كما تكشف عن اعجاز الخطاب القرآني وهذه الصفة الكروية للأرض ناجمة من قوة التثاقل التي تجعلها متماسكة مستقرة أثناء دورانها حول نفسها ودورانها حول الشمس. ومن هذا الدوران تنجم ظواهر طبيعية وتأثيرات بيئية تكون مدعاة للتدبر في آيات الله وسننه الكونية عند الموقنين به كما هي وازع للاستبصار في ما يعتمل في انفسهم من ذلك: «وفي الارض آيات للموقنين. وفي انفسكم افلا تبصرون» «٣». وآيات الخلق وكل ظواهر الطبيعة إنما تخاطب الذين يعقلون: «إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من

ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» «٤». وهذه الآيات مع ما فيها من إعجاز هي طريق للهداية والرشاد.

ثالثاً : ـ خاصية القرآن في الهداية :

شمولية القرآن للمعرفة التي تعبر عن كونه خاتم الرسالات يفيد إحتواءه على خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، كما أفاد الحديث الشريف. وهذا معنى خلوده وتجدد معانيه عبر الزمان وامتداده ليسع كل حال وكل ظرف ومكان. فخلوده هو سر إعجازه، واتساعه يجعله مصدراً للهدى : «إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم» «٥». فهو طريق للهداية والارشاد في كل أمر، ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله، كما حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم. وهو الفرقان بين الحق والباطل وبين الصدق والزيف وبين الصحة والخطأ وبين الخير والشر وبين الحلال والحرام وبين الفضيلة والرذيلة وبين الاصلاح والافساد وبين الرشد والبغى وبين الهدى والضلال، فهو «هدى للناس وبينات من الهدي والفرقان» «٦». وما لا ريب فيه أهل التقوى بان يجدوا في كتاب الله هداهم : «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» «١». وهذه حقيقة يدركها الذين أوتوا العلم ويرون في هذا الكتاب المنزل الحق والهداية : «ويرى الذين أوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد «٢». وفي كل علم من العلوم يكون وجه من الهداية. والهداية في مجال العلوم الكونية تكون في الآتي :

١ـ توجيه العقل للرؤية والنظر في آيات الكون :

القرآن حافل بالآيات التي تحث على التدبر في خلق الكون والتفكر في ظواهر الطبيعة. عشرات الآيات تبدأ بالسؤال التقريري كما في قوله تعالى : الم تر أن الله، أو لم يروا، أفرايتم، او لم ينظروا، أفلا ينظرون، وغيرها. ويعقب هذا السؤال التوجيهي طرح لموضوع يتعلق إما بقضية الخلق أو بسنة من سنن الفطرة أو ظاهرة في الطبيعة. كمثال لهذا الخطاب القرآني نورد بعض الآيات التالية : ـ

«الم تر أن الله خلق السموات والارض بالحق»«٣».

« او لم يروا كيف يبديء الله الخلق ثم يعيده» «٤».

« او لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها» «٥».

«الم تر أن الله أنزل من السماء مآء فسلكه ينابيع في الأرض» «٦».

« الم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما» «٧».

«أفرايتم الماء الذي تشربون. ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون» «٨».

«أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض» «٩».

«أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج» «١٠».

«أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت» «١١».

«ويكون الخطاب أحياناً توجيهاً مباشراً كما في قوله تعالى :

«قل أنظروا ماذا في السموات والأرض» «٢١».

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» «٣١».

«فلينظر الانسان الى طعامه. أنا صببنا الماء صبا»«١».

«فلينظر الانسان مم خلق. خلق من ماء دافق» «٢».

«انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه. إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» «٣».

الطريق لمعرفة الله :

إن النظر والتفكر في آيات الله الكونية يكشف عن ما تنطوي عليه من حكمة وتقدير واتقان وتدبير ولطف وتيسير. فها هو ذا ابراهيم عليه السلام كان يتلمس طريقه لمعرفة ربه بالنظر في آيات خلقه «فلما رأي القمر بازغاً قال هذا ربي ... فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر» «٤». حتى بلغ به المطاف الى معرفة الله فاسلم وجهه حنيفاً. بهذا يكون ابراهيم عليه السلام قد استنّ للباحثين عن الحقيقة منهجاً علمياً قوياً. وهكذا عصمه الله من أن يضل وهو نبي، فأراه ملكوت السموات والأرض وليكون موقناً : «وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين» «٥».

والنظر في ظواهر الطبيعة مثلما هو كذلك طريق لمعرفة الله وهو كذلك طريق لمعرفة السنن الكونية ولا كتشاف القوانين الطبيعية التي يمكن

تطبيقها لتطوير وسائل الحياة الانسانية كما يمكن ان نستنبط منها تصور البنى الطبيعة يفضي الي نظريات لنا ما يحتمل او ما يمكن ان يحتمل فيها من احداث .

فالنظرية الكونية الحديثة تقرر ان الاجسام ذات التكتلات العظيمة تؤثر علي هندسة الكون فكلما كانت كثافتها كبيرة كلما كان الفراغ حولها منحنيا غير مستوي لذلك فان النجوم ذات الكثافة العالية تجعل مسار الاجسام حولها متعرجا ولعل هذا الانعراج هو ما اشار اليه قوله تعالي :(وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) وقوة التثاقل الهائلة حول النجوم كثيفة المادة تجعل لمواقع هذه النجوم خصوصية في الخلق يمكن ان تكون سر قسم الله بها في قوله تعالي (فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم) كما ان تباعد هذه النجوم بمسافات اكبر من ان نتصورها بعقولنا انما يعزز تفسير سر هذا القسم ويزيده وضوحا والنجم الضخم يمكن - بفعل هذه القوة المتعاظمة -ان تتضاغط مكوناته منهارا الي داخله حتي تتلاصق انوية الذرات المكونة له وتندمج . وهذا النجم الذي انهار بناؤه وهوي الي داخله يتكون فقط من النيترونات ويسمي لذلك نجما نيترونيا . ويكون له اعظم كثافة ممكنة تبلغ ٤.١ بليون في السنتيمتر المكعب الواحد . وتكون جاذبيته اقصي جاذبية لجسم مادي . حيث تتجلي قدرة الخالق فيما اودعه الله فيه من قوة . وقد يكون في ذلك سر قيمه تعالي في اول سورة النجم :(والنجم اذا هوي) ولعل المقصود بالنجم الذي هوي .. الشعري اليمانية التي كثيرا ما نشاهدها بالقرب من كوكبة الجبار متلالئه بضوء لونه مائل للزرقة وقد ورد ذكرها في اواخر السورة ذاتها في ايه :(وانه هو رب الشعري) اذ كانت نجما عملاقا فانهارت لتصبح نجما من الاقزام . وهي من اقرب النجوم الينا اذ تبعد منا حوالي ٨ سنوات ضوئية والسنة الضوئية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء لمدة عام بسرعة مقدارها نحو ٣٠٠الف كيلومتر في الثانية الواحدة

واسترسالا في التفكر في ايات الكون يمكن فهم تاثير النجم النيتروني علي البناء الكوني حوله . حيث يكون هذا النجم ثاقبا لبنية السماء . وهنا يمكن ان نستانس بهذا المعني في فهم ما اقسم به الله :(والسماء والطارق . وما ادراك ما الطارق النجْم الثاقب) وربما استانس به ايضا من يقولون بوجود ثقوب سوداء في الكون والثقب الاسود هو نجم يعتقد انه تقلص منهارا الي داخله بسبب التجاذب المتعاظم بين اجزائه حتي انعدام حجمه فصار نقطة جذب لا متناه تبتلع كل ما حولها حتي الضوء لا يمكن انفلاته او خروجه منها لذلك سميت ثقبا اسود.

هذا الكون البديع :

وهكذا فانه كما تقدم العلم الطبيعي في فهم ايات الكون كما تكشفت لنا كنوز ايات القران . وكما بحثنا في بناء الكون تجلي لنا الابداع في تكامل عناصره والحكمة في توازن القوة والروعة في انسجام احداثه . والدقة في تناسب خلقه الذي لا يعتريه خلل :(ماتري في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل تري من فطورر . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) لهذا كان الخطاب القراني موجها نظر المكذبين بحقيقة البعث للتفكير في بناءالكون وخلقه مذكرا المنيبين للتبصر في روعة هذا الخلق :(افلم ينظروا الي السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكري لكل عبد منيب) ومن روائع هذا النظام الرباني المحكم هذه الزوجية التي تسود في الطبيعة وتفضي الي توازن بديع في شتي مدلولاتها فقد اسبغها الله علي الأحياء من حيوان ونبات في خاصيتي الذكورة والانوثة . كما فطر عليها كلَ الاشياء :(ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) ومن الواضح ان كل شيء تعني الازواج كلها في قوله تعالي :(سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون) وعبارة من مالا يعلمون تجعل المعني شاملا كل صنف الخلق سواء في عالم الماديات او حتي المعنويات وامتداد معني الزوجية ليشمل ما لا يعلمه الانسان بعد يدعو الي التفكير والبحث في صورها كما انه يمثل واحدا من اوجه

الاعجاز في كلام الله عن شمول هذه الخاصية التكاملية في طبائع الاشياء في زوجية الشحنات الكهربية . وفي الأزدواجية الجسمية - الموجبة للضوء وللمادة بوجه عام ومضادها وغير ذلك من انماط الزوجية التي ستظل مجهولة ولما يكتشفها العقل البشري كما تفيد الاية بذلك .

2 . الكشف عن الحقائق الكونية :

لا يقف القران في مجال الهداية عند حد توجيه الانسان للتفكير في حقائق الكون بل انه كثيرا ما يتيح الكشف عن الحقائق سيما في امور يكون العقل قاصرا عن الاحاطة بها او اثباتها بالتجربة كخبر نشوءالكون وماله الذي اسلفنا مناقشته . او كما في قوله تعالي عن تسبيح الاشياء :(وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وعلي الرغم من عدم فهمنا طبيعة هذا التسبيح إلا انه يمكن تقريبه للاذهان من خلال تصورنا للحركة الترددية التي تعتمل داخل البناء الذري للمادة ويحكمها قانون كمي او الحركة الدورية للاجرام السماوية التي لا تكف عن سمتها التكرارية التسبيحية كما اننا يمكن ان نفهم النمط الترددي لهذه الحركة من خلال اعتقادنا بتسبيح الكائنات المادية .

وهنالك حقائق قرآنية أخري يعجز العقل - في زماننا هذا - عن ادراك كنهها ولكنه لا يملك ان يدحضها كحديث الهدهد وحديث النمل في قصة سليمان عليه السلام . وحقيقة ان العقل البشري مصمم لا ستيعاب لغة غير لغة الانسان سوي ما اختص الله به نبيه سليمان . إلا ان ملاحظ العلماء تشير الي وجود طريقة للتخاطب بين افراد كل جنس من الاحياء كما تؤكد وجود تنظيم فطري بديع لدي عالك النمل والنحل وغيرها من الحشرات . وفي سلوك الطيور والاحياء المائية وسائر الحيونات . وهذا ماكشف عنه كلام الله :(وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم) وقد تأتي الحقائق الكونية في ثنايا نص قرآني عرضا او يمكن استنباطها من اشارة عابرة او من خلال اخبار غير مباشر . ومثال ذلك انزال الحديد ورد في سياق الاية من ان فية باسا شديدا ومنافع للناس :(وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس) ففي هذا ما يفيد ان هذا المعدن لم يكن موجودا في تكوين الارض ربما ابان الحقب السابقة لنشوء الانسان عليها. وان افراده دون غيره من الفلزات يشير الي خصوصية في خواصه الطبيعية جعلت منه اداة الية للحصول علي الطاقة لمصلحة الانسان كما هو ضروري لتوفيرها في غذائه فمنه يتركب اليحمور (الهموجلوبين) في الدم واللافت للنظر هنا ان ذرات الحديد لا تتركب الا بطاقة عالية غير متاحة في الارض مما يفيد نزوله مركبا من خارج هذا الكوكب . ويؤكد ذلك ان النيازك التي تتساقط علي الارض بلا انقطاع ومعظمها في شكل ذرات تستقر في تربتها تتكون اساسا من عنصر الحديد الذي تمتصه النباتات ثم يدخل كاهم عنصر في غذاء الحيوان والانسان .

حقائق مستنبطة :ـ -

ويمكن استنباط جملة من الحقائق عن الطبيعة من خلال التدقيق في النصوص القرانية مثال ذلك عن كروية الارض كما اسلفنا او عن انخفاض سطحها لا دني حد عند الموضوع الذي دارت فيه المعركة التي غلب فيها الروم علي ايدي الفرس حوالي ٦١٥م وذلك من قوله تعالي :(غلبت الروم في ادني الارض ...) كما يمكن استنباط قلة الاكسجين بارتفاع عن سطحها من ما يدل عليه النص القراني (.. ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد في السماء ...) او ضرورة ترك الحصاد القمح في سنبلة حفظا له من التسوس والافات كما قد يستنبط من قول يوسف عليه السلام :(.... فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما تاكلون) .

ويمكن من قوله تعالي :(إنا ناتي الارض ننقصها من اطرافها) ان نستنتج تزايد حرارة الارض وما يسمي بالتاثير الصوبي او بظاهرة الاحتباس الحراري وما يستتبع ذلك من ذوبان الجليد والثلوج وارتفاع مياه البحار والمحيطات وسطوها علي اليابسة . او تفسير انتقاص الارض من اطرافها بتزايد غمرها بالماء بسبب تزايد حرارة الارض الناجم عن تلوث البيئة . كما ان قوله تعالي :(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) يمكن تفسيره بالتلوث الذي

يفسد الجو والارض برا وبحرا بسبب بعض اعمال الناس وانشطتهم غير المنضبطة بمبادئ العدل وقيم الفضيلة وما يجره عليهم هذا السلوك اضرار لعلهم يتوبوا الي رشدهم .

وثمة استنباطات اخري لحقائق في علم الكونيات عن خصوصية مواقع النجوم التي اقسم بها الخالق . وعن تكون جزيئات الماء في مرحلة من تطور البناء الكوني سابق لنشوء الحياة علي الارض وغير ذلك مما نقاشناه انفا في سياق الاعجاز القراني مثال ذلك الحقيقة المستنبطة من الخبر القراني (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك اية) والدالة علي ان جسد فرعون مقدر له ان يبقي عبر القرون علي الرغم من انه لم ينج من الغرق حسب قوله تعالي :(فاغرقناه ومن معه جميعا) وقد قدر الله ان يبرع قدماء المصريين في كيمياء التحنيط لتحقيق هذه العجزة القرانية اذ اكتشفت مومياء هذا الفرعون في القرن الماضي لتكون شاهدا علي اعجاز القران وحفظه وفي هذا تصحيح لم يرد في سفر الخروج في كتب اليهود والنصاري ازاء حادثة غرق الفرعون . ومثل ذلك تصحيص توقيت ميلاد عيسي عليه السلام الذي يحتفل به النصاري شتاء في حين ان في القران ما يشير الي انه ولد في فصل يكون التمر فيه رطب حسب ماتعني الاية :(وهزي عليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) والنخل في فلسطين لا يثمر الرطب الجني في الشتاء وفي هذه الاية كذلك فائدة صحية جدوي الرطب لغذاءالمراة المرضع وهو ما تؤكده التجربة . والحقائق المستمدة من الكتاب الحكيم تاتي احيانا بصورة مباشرة كما سبق ذكره ازاء الفائدة الطبية لعسل النحل او ما في الحديد من باس ومنافع للناس او في تطور خلق الانسان في قوله تعالي :(ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم انشاناه خلقا اخر ...) وهذا الترتيب القرآني لاطوار الخلق هو ما استقر عليه علم الاجنة الحديث . وتتضح الدقة العلمية في هذا النص القراني من استخدام ثم ولفاء في تقديد كما هو عن الجنة والنار وما وراء ذلك من وجود لا تستوعب عقولنا مكانه او طول زمانه .والتطلع الي ما يجري في السماوات العلي او النفاذ اليها مستحيل الا بسلطان من الله :(يامعشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان)ولقد اوتي رسول الله سلطانا لينفذ من اقطار السموات حين عرج به فالتقي بالنبيين من قبله كما راي حال امته يوم القيامة وراي الجنة كما راي المعذبين في النار ومنهم من لما يولد بعد في الحياة الدنيا . بهذا فان نبينا قد شهد الماضي كما شهد المستقبل . علما بان الرحلة بكاملها لم تستغرق - بحسابنا للزمن - الا اليسيرَ جدا . (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) ولان عقولنا مكيفة فقط لادراك ما حولنا من عالم المحسوسات فان القرآن يمثل لنا المفاهيم الغيبية بصور يمكن استيعابها من ما في الطبيعة . فالجنة او النار نموذج من الكون الطبيعي يقرب الي اذهاننا مفهومي الثواب والعقاب وكما جاء في الحديث في الجنة مالا عين رات ولا أذن سمعت ولا خطر علي قلب بشر لذلك فان القران في تقريبه لمشاهدها يعطي هذا المثل المحسوس : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها انهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفي ...)

القران وقوانين العلم الطبيعي :

وكما ان صور الغيب يمكن تبسيطها بغرض تقريبها للاذهان وذلك عن طريق تمثيلها بما يلينا من صور الطبيعة . فان السنن العامة التي تحكم الوجود يمكن تخصيصها لتناسب حالات يمكننا وصفها والقوانين الكلية يمكن اختزالها الي معادلات يمكن حلها وهكذا فان النصوص القرانية التي تعبر عن مباديء شاملة يمكن ان يستنبط منها علاقات يمكن فهمها مثال ذلك ما اسلفنا مناقشته واكده القران من اتساع مستمر في البناء الكوني ظل يحدث تحت تاثير قوي طبيعية منذ ان فتق الله السماوات والارض وقد اكد القران :(ان القوة لله جميعا) مهما اختلف نوعها وانه (لا قوة الا بالله) وهذا يعني ان كل تغير او حدث انما يكون بفعل قوة . وهذا مبدا عام يتعلق بنسبة كونية واذا خصصناه لوصف التغير

الذي يحدث في المكان والزمان لحصلنا علي قانون الحركة الذي صاغ معادلته الرياضية اسحق نيوتون وصار واحدا من اسس العلوم الطبيعية وازاء التغير الذي يحدث في حال الناس فان القران قد اكد :(ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بانفسهم) وهذا ايضا مبدا عام يفسر مايجري من تحولات لمجموعة من الناس فتغير حال الناس لا يحدث الا بعد ان يحدث التغير الداخلي فيهم فاذا انفعل الناس بفكرة لابد ان يترتب علي ذلك تغير في سلوكهم او انشطتهم وقد يتزايد هذا الانفعال فيؤدي الي ثورة او تحول كلي في حياتهم سلبا او ايجابا هذا المبدا يمكن تطبيقه في مجال العلم الطبيعي ازاء مايحدث من تغير في حالة مجموعة من جزيئات سائل ما فاذا ما انفعلت هذه الجزيئات بقدر من الطاقة الحرارية فان سلوكها يتغير واذا ما تجاوزت الطاقة المؤثرة حدا معينا يزداد انفعالها فتثور فيتحول السائل الي بخار ومثل السائل ،الغاز ، فانه اذا سخن تبدأ جزيئاته في التحرك حتي تتغير اوضاعها ثم اذا اكتسبت طاقة حرارية اكثر فانها تتحرك جماعيا حيث يتمدد الغاز فتتغير حالته وهذا القانون الذي يحدث وفق هذا التغيير أودعه الله في خلق الكون كما اودعه في نصوص القران اي ان القانون الذي يفسر التغير والتحول في التكوينات الجزئية في المادة يماثل القانون الذي يفسر التغير والتحول في المجتمعات والكيانات الانسانية .

-3توجية البحث العلمي :

كما اسلفنا فان النص القراني في ثنايا بلا غته الرائعة يذكر تارة بامور مالوفة لدينا لم نوجه تفكيرنا اليها وتارة يثير فينا التفكير داعيا للنظر في ما تنطوي عليه هذا الامور من اسرار والي اكتشاف ما تشتمل عليه من حقائق . والقران من خلال هذه الدعوة يفتح مجالات للبحث العلمي في اطار الايمان ويصوبه نحو غايات رشيدة ومحكمة بجملة من الموجهات والضوابط والبحث العلمي في ظل هذا الموجهات انما يلبي اهداف العبادة ويتاصل علي حقائق الدين ومقاصد الشرع ويلتزم بقيم الفضيلة ويناي عن مزالق الضلال .

والخطاب القراني يثير قضايا للبحث تتعلق بمواضيع مختلفة في مجالات العلوم الطبيعية فهذا سؤال في علم الاحياء عن خلق الابل ومدي مواءمة وظائف اعضائها للبيئة المحيطة بها وما وراء ذلك من دقة وتقدير وسؤال في مجال الكونيات عن القوي التي تحكم البناء الكوني في ما يحيط بنا من سماء وسؤال في علم طبقات الارض عن نشوء الجبال وانتصابها . وسؤال في علم الهندسة الفراغية عن طبيعة كوكبنا الارض الممتد بلا انقطاع هذه الاسئلة التي تمثل مواضيع للبحث والدراسة يعرضها القران باسلوب غاية في اليسر والروعة البلاغية (افلا ينظرون الي الابل كيف خلقت والي السماء كيف رفعت والي الجبال كيف نصبت والي الارض كيف سطحت) وتاتي موا

ضيع البحث من خلال النصوص القرانية مستجيبة لاهتمامات الباحثين في فروع العلوم المختلفة . اما في اسلوب اخباري او اقراري كما في قوله تعالي :(الم نجعل الارض مهادا والجبال اوتادا . وخلقناكم ازواجا وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا)

ارتباط العلم الطبيعي بالايمان :

لقد بينا في ما سبق ان العلم الطبيعي قاصر عن ان يعطي كل الحقيقة عن الوجود لذلك لابد ان يتاصل علي حقائق الغيب حتي يتسق مع غيره من المعارف . كما اوضحنا امكان ان يكون لمبادئ هذا العلم اصل في القران وبما ان التدبر والتفكر في خلق الكون عبادة حث عليها الدين فان المعرفة الكونية في حقيقتها ضرب من العبادة ومولج الي الايمان برب الكون وخالق لذلك ارتبط الايمان بالله وخشيته بالعلم :(انما يخشي الله من عباده العلماء) أولو الالباب الذين يذكرون الله في كل احوالهم ويرون اياته تعالي فيالكون فيتدبرونها ويتقونه حيث قال تعالي (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلي جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) فهؤلا المتقون يجعل الله لهم فرقانا بين الحق

والباطل وبين الهدي والضلال ويمتزج في قلوبهم ذكر الله مع التفكر في خلق الله فتتناغم قلوبهم مع عقولهم خلافا لما عليه الغافلون من الناس فاولئك :(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم عين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل اولئك هم الغافلون) وقد قال الله في هؤلاء :(افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها . او اذان يسمعون بها فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور)

العبادة الشاملة :

فالذين يسيرون في الارض ويتفكرون في ما ينتظم الكون من بديع خلق الله تنفعل قلوبهم بذكره ويدركون الحكمة والقصد في ما خلق ويحمدونه تعالي علي آلائه فالشمس . هذا السراج يمثل المصدر الاساس للحياة علي الارض اذ تبعث بضيائها مفعما بالطاقة التي تبخر مياه البحار وتعيدها غيثا يسيل علي الارض انهارا فتنبت الزروع وتخضر المروج كما نبهنا لذلك القران :(وجعلنا سراجا وهاجا وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا) وهذه الطاقة الهابطة من السماء تخزنها النباتات في اوراقها وثمارها لتستحيل غذاء للحيوان والانسان بواسطة عملية التمثيل الضوئي ولعل هذا ما يكشف عن سر قسم الله (والشمس وضحاها) اي وتجلياتها في الطبيعة والحياة والله يوجهنا للنظر في مايجري في الطبيعة والي القصد من ورائه :(فلينظر الانسان الي طعامه انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وابا متاعا لكم ولانعامكم) فهذا بعض ما افاض الله به من نعمة علي الانسان (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم) لذلك يجب علي المؤمنين المتدبرين في خلق الله ان يستغفروا ربهم علي ما قد يعتريهم من غفله عن ادراك هذه النعم التي اودعها الله في الطبيعة . ولعلهم عند ئد يرددون دعوة نوع علية السلام (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم اطوارا الم انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيهاويخرجكم اخراجا والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا)

ان مقتضي عبادة الله في شمولها يعني استشعار نعمه تعالي في كل حال واستحضار عظمته وجلاله في كل مال والنظر فيما تنطوي عليه اياته الكونية من حكمة وتدبير واتقان وتقدير ولطف وتيسير والخلوص بذلك الي التسليم له تعالي بالعبودية والطاعة وهذا هو مقصد الخلق كما يقول الله :(وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فهم مجبولون علي ان يتواءم سلوكهم مع ناموس الله في الوجود وتنسجم حركتهم مع سننه تعالي في الطفرة (وله اسلم من في لسموات والارض طوعا وكرها واليه يرجعون) .

الشعائر التعبدية والحركة الكونية :

الاسلام كرها هو ما تجبل عليه سنة الخلق . والاسلام طوعا اكثر ما يتمثل في اداء الشعائر التعبدية وان هذه الشعائر التي تعبر عن ذكرالله وشكره قد ارتبطت بحركتي الارض بالنسبة لا ظهر جرمين سماويين يشاهدهما الناس منها . هما الشمس والقمر وما ينتج عن ذلك من ظواهر طبيعية كتتابع السنين والشهور وتعاقب الليل والنهار :(تبارك الذي جعل في السماءبروجا وجعل فيها سراجا وقمر منيرا . وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكورا) والمؤمنون يذكرون الله بالصلاة عند كسوف الشمس وخسوف القمر فهما ايتان من ايات الله ومن اوجه نعمه التي تستوجب الشكر له وانما تقام الصلاة لذكره تعالي :(واقم الصلاة لذكري) ولقد ارتبطت هذه الشعيرة بمواقيت يلتزم المؤمنون بادائها فيها :(ان الصلاة كانت علي المؤمنين كتابا موقوتا) وينطق صوت الاذان خمس مرات كلما دارت الارض دورة حول نفسها ليبث في كل ارجاء الكون ويعلن للعالمين نداء التوحيد وتقام الصلاة كلما استدارت الارض بالنسبة للشمس :(واقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل) فريضة قبل شروق الشمس . احد طرفي النهار . وفريضتين في طرفه الاخر قبل غروبها من عند الزوال واثنتين بعد غروبها الي غسق الليل وهنا يجب ان نلحظ الحكمة

والاعجاز في ان هذه الصلوات خمسة ولكن اوقاتها المذكورة في القرآن ثلاثة . ذلك لان القران خطاب لكل الناس في جميع احوالهم وفي مواقعهم من الكرة الارضية وفي سائر فصول السنة فمن حال الى حال ومن موقع الى موقع ومن فصل الى فصل يمكن الجمع بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء في السفر والمرض والمطر كما يتداخل وقتا الظهر والعصر في شمال الكرة الارضية شتاء ووقتا المغرب والعشاء وفي ذلك اعجاز مبين وحكمة للعارفين ويسر للعابدين .

والصلاة عماد الدين وعمود الاسلام لذلك فان الله خصها بوضع مرموق اذ لم تفرض في الارض كسائر العبادات ولكن في احتفال سماوي عجيب وذلك عندما عرج بالنبي الى الملأ الأعلى حيث تقصر قوانين الطبيعة عن وصف هذا الحدث ولكنها تشير بهذا الى امتداد في الوجود وراء الكون المادي . ومثل الصلاة سائر العبادات الاخرى يتساوق فعلها مع حركة الكون فكما ان الصلاة كسائر العبادات تكرارا كلما دارت الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس فان الزكاة اكثر ارتباطا بدورة الطبيعة في حياة الانعام وعند حصاد الزروع : (واتوا حقه يوم حصادة) لذلك فاداوها كفريضة يتكرر كلما دارت الارض مرة حول الشمس وعندما تاخذ الشمس القمر والارض في دورانها وضعا معينا بعد حالة الاقتران التي يكون فيها القمر في وضع بين الارض والشمس ومحازيا لكلتيهما يتيح انعكاس ضياء الشمس من على سطح القمر الى الارض يمكن رؤية الهلال وبذلك تحدد بداية الشهور ونعلم عدد السنين والحساب كما بين لنا القرآن :(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) في هذه الآية تمييز علمي بين الضياء الصادر من المنبع الشمس والنور المنعكس من على سطح القمر كما ان كلمة ضياء تفيد الجمع او التعدد وهو ما يعرف باطياف الضوء بالوانه السبعة المعبرة عن تفاوت اطواله الموجية وفي هذا دقة واعجاز علمي وبعلم الحساب نتحرى رؤية هلال شهر رمضان وكل الشهور التي ترتبط بهذه الظاهرة الكونية التي تتكرر اثنتي عشر مرة في كل عام كما جاء في كتابه تعالى (ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله) ومن اللافت للنظر هنا ان كلمة شهر وردت في كتاب الله ١٢ مرة ومثل ذلك كلمة اليوم تكررت بعدد ايام السنة الشمسية وهذا جانب من الاعجاز القرآني العددي الذي قد يتسع البحث فيه خارج اطار هذه الدراسة واضافة واضافة لذلك فان صوم رمضان موقوت بدورة الارض حول نفسها للافطار عند الغروب وللامساك عند الفجر ولان رؤية الهلال لا تثبت لكل الناس اذ لا يشتركون جميعهم في ليل واحد ومنطقة واحدة فان مواقيتهم تختلف على جانبي الكرة الارضية . ولكنهم جميعهم يؤدون فريضة الحج بميقات زمني واحد وفي هذا نجد الاعجاز بينا في قوله تعالى عن الاهلة :(قل هي مواقيت للناس والحج) فافراد الحج دون غيرة من العبادات المرتبطة برؤية الاهلة كالصوم والزكاة راجع لكون الناس يكونون في موضع واحد هو مكة المكرمة فلا تتعدد الأهلة لديهم اما لغيرهم المنتشرين على سطح الارض فتتعدد رؤية الأهلة مع انحناء سطح الارض وما كانت لتتعدد لو كان هذا السطح مستويا اذن لراي كل الناس الهلال في وقت واحد ولكن بزوايا مختلفة وهذا التفاوت في وقت وظهور الاهلة يدل على كروية الارض كما يدل على دقة التعبير القراني واعجازه ومع ارتباط الحج بدوران القمر والارض فانه كذلك يتكرر مع دورانهما حول الشمس وفي اداء مناسك الحج رمزية متميزة تحاكي دوران الكواكب حول الشمس في شعيرة الطوف او السعي بين الصفا والمروة وهذه الحركة الدورانية تكون دائما من اليمين الى الشمال فيما يسمى عكس عقرب الساعة وهي سمة غالبة في الكون في حركة الاشياء وسلوك الاحياء .

وخلاصة القول . ان العبادة في ارتباطها بحركة الكون تخرج الانسان من حياة رتيبة الى كنف حياة منفعة بذكر الله والعبادة في معناها الشامل تجعل سلوكه متناغما مع سنن الله .

خاتمة :

كل ما اوردنا في هذه الدراسة من دلالات لايات القران الحكيم متبصرين في محتواها . متفكرين في معناها متدبرين في مرماها . انما تكشف عن

خصائص هذا الكتاب الحكيم فهو خطاب متفرد من حيث انه محفوظ في نصوصه شامل في مضامين هذه النصوص ومتميز بتجدد فهمها وادراك ما تنطوي عليه هذه المضامين وبالتامل في معناه واعمال الفكر في محتواه تتجلي صورة المزاوجة بين ما انزل الله في القران وما اودع في الكون من ايات وما يتكشف عن هذه المزاوجة من مواءمة وتناغم وانسجام تنم عن ايجاز في القول والتعبير واعجاز في الخلق والتقدير والامر والتسيير (... الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) فكتاب الله هو المصدر الجامع الكامل للهداية في شتي وجوهها وكما انه يهدي للمعرفة الكونية فانه كذلك يهدي لما سواها من المعارف والعلوم ويستمد العلم بطبيعة الكون وتكشف حقائقه اما مباشرة من تلقاء النصوص القرانية او استنباطا منها ويتسع مجال الكشف عن هذه الحقائق كلما تعمق الباحثون عنها في ادراك معاني آيات الله المنزلات مع التدقيق في فهم اياته الكونيات والقران لاينفد منهله ولا ينضب معينه فكما اكتسب الانسان علما عن ما يحيط به من الكون والطبيعة والحياة تفتق عقله عن ادراك معان جديدة في الكون الكتاب المعجز وهكذا يدرك - في زماننا هذا -المتفكرون في ايات التنزيل دلائل كونية لم يكن العلم بها متاحا لسلفنا الصالح من مفسري القران الكريم ولسوف ياتي بعدنا في الاجيال اللاحقة - ان شاء الله - من يكتسبون العلم ويدركون من اسرار القرآن وخفايا الكون ما لا ندركه اليوم - الا ان اكتساب العلم مرتبط بالتقوي (واتقوا الله ويعلمكم الله) مثلما ترتبط الهداية بها .(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هذي للمتقين) والعلم الكوني الموصول بالله هو الذي يقود الي تقدم حقيقي في حياة الناس .

وقد شهدت الحضارة الاسلامية ازدهارا ملحوظا عندما ترعرع العلم الكوني في احضان الايمان بالله واستهدي علماء الطبيعة بالقران . فقد نبغ هؤلاء العلماء في شتي المعارف الكونية . وشهد لهم التاريخ باسهاماتهم الرائعة وانجازاتهم الواسعة .

واخيرا ندعوا علماء الامة ليعيدوا سيرة أسلافهم بأن يستمدوا العلم من القران بعقول مفتوحة علي آيات الله الكونية ويكتسبوا العلم من الكون بعقول مدركة لدلالات آياته القرآنية .

المراجع

اولا مراجع اساسة :

- القران المجيد .
- تفسير الجلالين .
- في ظلال القرآن لسيد قطب .
- صفوة التفاسير - محمد علي الصابوني - دار القران الكريم - بيروت ١٤٠٢هـ
-المعجم الموضوعي لايات القران الكريم - اعداد صبحي عبد الرؤوف عصر -دار الفضيلة - دمشق - ١٤٠٥هـ-١٩٨٧٤م.
- معجم الاحاديث النبوية - علي اقراص صخر الحاسوبية المدمجة .

ثانيا : دراسات وبحوث للمؤلف تكمل الموضوع

- تاصيل المعرفة اسسه واهدافه . مجلة التاصيل . العدد ٦ يناير ١٩٩٨ م . ادارة تاصيل المعرفة - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - الخرطوم - السودان .
- حول الخصائص القرانية في مجال العلوم الكونية - مجلة جامعة القران الكريم والعلوم الاسلامية العدد ٣ المحرر ١٤١٨هـ -امدرمان السودان .
- التاصيل الاسلامي ومنهجية العلوم الطبيعية - من اعمال حلقة العمل العلمية حول قضايا تاصيل المعرفة - مركز التنوير المعرفي - الخرطوم - مارس ٢٠٠٥م
- حول اخلاقيات البحث العلمي - مجلة ابحاث الايمان - العدد ١١شوال ١٤٢٠هـ - المركز العالمي لابحاث الايمان - الخرطوم - السودان .
- اضاءات قرآنية حول ضياء الشمس وضحاها - مجلة ابحاث الايمان - العدد ١٧ ربيع الاول ١٤٢٦هـ - المركز العالمي لابحاث الايمان - الخرطوم - السودان .
- هلال رمضان والمعراج بين المنقول والمعقول - مجلة ابحاث الايمان - العدد ١٢ جمادي الاول ١٤٢١ هـ الخرطوم السودان .
- الاسراء والمعراج بين المنقول والمعقول - مجلة ابحاث الايمان - العدد ١٢ جمادي الاول ١٤٢١هـ - المركز العالمي لابحاث الايمان - الخرطوم السودان .

ثالثا : مراجع اخري

- الاسلام يتحدي - وحيد الدين خان- مترجم من الاردية - صادر عن المجمع العلمي الاسلامي . دار البحوث العلمية - ندوة العلماء - لكنو - الهند - منشورات الشركة المتحدة للتوزيع بيروت - لبنان - الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.
-التصور الاسلامي للوجود - حسن الحياري - دار البشر للنشر والتوزيع - عمان - الاردن ١٤٠٩هـ .
- ايات قرانية في مشكاة العلم - يحي المحجري - دار النصر للطباعة الاسلامية - القاهرة - مصر - ١٩٩١ م
- بنية المادة بين الموجود والعدم - محمد ممدوح الخطيب - دار النشر للتوزيع - عمان - الاردن - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - ١٤١٦هـ.

- القوة العظمى - باول ديفر - ترجم من الانجليزية - وزارة الثقافة والاعلام - بغداد - العراق - ١٩٨٩م

the matter ,s myth , by pal Davies & john Gribbin-

ترجمة م . علي يوسف علي . تحت اسم اسطورة المادة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٨م .

La Bible , Le Coran et la Scìece - Par Maurice Bucaille - Seghers , , ٣١ Rue Falguiere, ٧٥,٧٢٥ Paris , Cedex ١٥.

ترجم من الفرنسية بعنوان : دراسة الكتاب المقدس في ضوء المعارف الحديثة - دار المعارف - الطبعة الرابعة - القاهرة - مصر - سبتمبر ١٩٧٧م .

- من محاضرات الشيخ عبد المجيد الزنداني - جامعة الإيمان - صنعاء - اليمن .

- من محاضرات د. زغلول النجار - هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة . مكة المكرمة .

«١» الجن «١٢ ـ ٢٧»

«١» البقرة «٢٨٢».

«٢» الأنفال «٢٩».

«٣» القمر «١٧».

«٤» يس «٦٩».

«٥» النور «٤٥».

«١» الأنعام «٣٨».

«٢» الذاريات «٤٧».

«٣» النحل «٦٩».

«١» الانبياء «٣٠».

«٢» العنكبوت «١٩».

«١» الاحقاف «٣».

«٢» الانبياء «١٠٤».

«٣» القصص «٨٨».

«٤» الرحمن «٢٦ ــ ٢٧».

«٥» الأعراف «١٨٥».

«٦» العنكبوت «٢٠».

«٧» نوح «١٥ ـ ١٦».

«٨» النحل «٨٩».

«٩» المائدة «٦٧».

«١٠» النحل «٤٤».

«١» البقرة «٢٢٢».

«٢» البقرة «١٨٩».

«٣» الكهف «٢٧».

«٤» فصلت «٤٢».

«٥» الحجر «٩».

«٦» الروم «٣٠».

«٧» الفتح «٢٣».

«١» فصلت «٥٣».

«٢» ق «٦».

«٣» الطارق «٥».

«٤» الكهف «١٠٩».

«٥» البقرة «٢٣».

«١» الاسراء «٨٨».

«٢» القيامة «٤».

«٣» يس «٨٠»

«١» الرحمن «١٩ ـ ٢٠»

«٢» النمل «٦١».

«٣» الفرقان «٥٣».

«٤» الذاريات «٤٧».

«٥» النمل «٦١».

«٦» الأنبياء «٣١».

«١» المرسلات «٢٥ ــ ٢٧».

«١» الانبياء «٣٠».

«٢» النور «٤٥».

«٣» القمر «٤٩».

«٤» المؤمنون «١٤».

«١» نوح «١٥ ـ ١٦».

«٢» الفرقان «٦١».

«٣» النبأ «٦ ـ ٧».

«٤» لقمان «١٠».

«٥» الغاشية «٢٠».

«٦» ق «٧».

«٧» نوح «١٩».

«٨» الزمر «٥».

«١» يونس «٢٤».

«٢» القمر «٥٠».

«٣» الذاريات «٢٠ ـ ٢١».

«٤» البقرة «١٦٤».

«٥» الاسراء «٩».

«٦» البقرة «١٨٥».

«١» البقرة «٢».

«٢» سبأ «٦».

«٣» ابراهيم «١٩».

«٤» العنكبوت «١٩».

«٥» الرعد «١٤».

«٦» الزمر «٢١».

«٧» النور «٤٣».

«٨» الواقعة «٦٨ ـ ٦٩».

«٩» الأعراف «١٨٥».

«١٠» ق «٦».

«١١» الغاشية «١٧».

«١٢» يونس «١٠١».

«١٣» العنكبوت «٢٠».